ابولوجيا

(١)

رسالة كتبها الفيلسوف الالهي افلاطون احد تلاميذ سقراط . اتى فيها على دفاع سقراط عن نفسهِ اراء متهميهِ وقضاتهِ . ويجدر بنا قبل ان نتابع نشر هذه الرسالة ان نلم بطرف موجز في السبب الذي حدا بالآثينيين الى محاكمة سقراط

ولد سقراط عام ٤٧١ او ٤٦٩ قبل المسيح . وحوكم عام ٣٩٩ ق . م . ومات تلك السنة

ان حياة سقراط والسبيل التي سلكها اراء العامة والادعياء من اهل زمانهِ كانت في الواقع سبباً لاتهامهِ والحكم عليهِ بالموت . فان الذين لم يكن لهم بهِ صلة كانوا ينظرون اليهِ بعين مؤلفي الروايات المضحكة التي كانت تكتب ابتغاء السخرية بهِ والاستهزاء بتعاليمهِ . والذين كانوا يصادفونهُ من الجهلاء لم يستطيعوا ان يدحضوا حقهُ بما كانت تزين لهم الطريقة السفسطائية التي كانت ذائعة في عهدهِ . غير ان نبوغهُ وما كانت تجرهُ عليهِ تعاليمهُ من البغضاء لم يكن السبب في الكارثة التي المت بهذا الفيلسوف العظيم . بل كانت هناك بواعث اخر غير هذه ادت الى اتهامهِ وجعلت اهل اثينا لا يأنفون من الحكم عليهِ وتنفيذ الحكم فيهِ

وتلخص التهم التي وجهت الى سقراط في انهُ (اولاً) انكر آلهة اثينا التي كانت تعترف بها الحكومة واحلّ محلها آلهة احر من عنده (وثانياً) انهُ فتن شبان اثينا

اما التهمة الاولى فكانت دعامتها قول سقراط بان صوتاً لازمه كل ادوار حياتهِ مدعياً ان ذلك الصوت لم يكن الاّ هدى هاتف قدسي . واما التهمة الثانية فان زينوفون قد حصرها في بضع مسائل (الاولى) انهُ علم تلاميذهُ وجوب الخروج على النظُم الحكومية . (الثانية) انهُ اعلن ان كريتياس والسيبيادس واحدهما من ممثلي حزب حكم الاقلية والثاني من ممثلي الحزب الديمقراطي اخطر من عاش في اثينا في ذلك الوقت على نظام الحكومة . (الثالثة) انهُ اغرى الشبان على الخروج عن طاعة آبائهم والقوامين عليهم ليحلوا سلطتهُ عليهم محل سلطة

هؤلاءِ .(الرابعة) انهُ كان من عادتهِ الاستشهاد باشعار من هوميروس وهيسيود تحض على اطراح الفضيلة والديمقراطية

وكان الذين اتهموهُ ثلاثة انيتوس وماليتوس وليكون. واخذ كل واحد منهم قيادة فئة من الفئات . وانتهى الامر بالحكم عليهِ بالموت فتجرع محلول الشوكران ومات في سجنهِ بعد شهر من تاريخ الحكم عليهِ وظل طول مدة سجنهِ على صلة بتلاميذهِ واصدقائهِ يعلمهم فلسفة الموت وكيف يجب على الانسان ان يموت . وكانت التعاليم التي افضى بها الى تلاميذه خلال سجنهِ من اخص تعاليمهِ واشدها تأثيراً في نفوس الناس من بعدهِ

***

ابولوجيا او دفاع سقراط عن نفسه

دفاعه قبل الفتوى بادانتهِ

(١) لست اعلم يا آل اثينا ما شعرتم بهِ اذ انتم مطرقون تصغون الى الذين يتهمونني . فان السبيل التي سلكوها الى التأثير فيكم لا السبيل المثلى حتى لقد انساني تظاهرهم بنصرة الحق نفسي. ومع هذا فلم يقولوا كلمة واحدة انتهجوا فيها محجة الحق والصواب . ولم اؤخذ لفرية افتروها اخذني من تحذيرهم اياكم مني ألاَّ تؤخذوا بسحر بياني زعماً منهم باني الخطيب المصقع الكبير . وانهم لعلى يقين بأني سأدحض برهانهم ببرهاني وأضرب حجتهم بحجتي واظهر لكم ظهور الصبح اذ يتبلج ضوؤهُ انني لست بالخطيب القابض بزمام لسانهِ على اعنة البيان . ويخيل اليَّ ان هذا اقصى ما بلغ اليهِ عتوهم وانتهت اليهِ وقاحتهم ما لم يكن قصدهم بالخطيب الكبير رجلا يقول الحق ويحترمهُ . اذا كان هذا قصدهم فانا عند قولهم . انا ذلك الخطيب — غير انني لست منهم في شيء . فانهم لم يفوهوا بكلمة واحدة جديرة باحترام العقلاء اما مني فستسمعون الحق الصراح . ولن يتبادر الى اذهانكم يا آل اثينا انكم ستسمعون مني ذلك الكلام المنمق والجمل الزيقة التي يضيع الحق في تضاعيف باطلها ، بل كلام دارج وجمل مرسلة على غريزتها خالية من آثار التصنع وتكاليف الاوضاع . واني لاعتقد اعتقاداً لا يوهنهُ الشك في ان ما اقولهُ لكم اليوم هو الحق لا اعدوهُ. لذلك امتّ اليكم ان لا ينشد احدكم امراً

الاّ استجلاء الحقيقة ضالة العقلاء . والحقيقة يا آل اثينا انهُ غير جدير برجل بلغ من العمر ما بلغت ان يقف امامكم وبين يديهِ دفاع معدٌّ من قبل كما تفعل الصبيان . وإن لي عندكم مسألة لا ابغي منكم عنها حولاً : فانكم ان وجدتموني اتكلم اثناء الدفاع عن نفسي كما عهدتموني اتكلم فيكم من قبل في الاسواق وساحات المدينة وفي غيرها فلا يتملككم الاغراب في الحيرة والعجب ولا تقطعوا عليّ سياق قولي . ولقد يحسن بي الآن ان افصح لكم عن حقيقة الحال : فان هذه الساعة أول ساعة من عمري وقد بلغت السبعين وقفت فيها موقف الدفاع عن نفسي في محكمة قضائية وجهت اليّ فيها تهمة ما . ولذا تجدونني غريباً عن المصطلحات التي استأثرت بها المحاكم من لغتنا . واذ افسحتم لي في الكلام كما لو كنت أجنبياً عن لغة ومحجة ولدت وربيت بعيداً عنهما يخيل اليّ ان لي الحق اذا سألتكم الاصغاء وان تحتملوا سماع ما اقول — جيداً كان قولي ام رديئاً — وان تصرفوا اذهانكم الى البحث عن قضية واحدة لا تتعدد تنحصر في ان « ما اقولهُ وتسمعونهُ مني صواب او غير صواب» . تلك فضائل القضاة العدول كما ان فضيلة الخطيب مقصورة على ان ينشد الحقيقة المطلقة لذاتها

(٢) يحسن بي الآن يا آل اثينا اذ تعمدت الدفاع عن نفسي ان اسلك سبيل النظر في اول من وجه اليّ تلك التهم المفتراة واول من اتهمني منكم ثم اعقب عليهم بمن تبعهم . وانكم لتعلمون ان من اتهمني وافترى عليّ منكم يخطئهم العدّ وقفوا امامكم من قبل سنين عديدة يرددون صدى افترآتهم . واني لاخشى سمايتهم اكثر من خشيتي سماية « انيقوس » وعصابتهِ ولو انها عصبة رهيب كيدها مخيف مكرها . وعلى الرغم من هذا فان الاول يا آل اثينا هم الذين يجب ان احذرهم ضعف حذري من « انيقاس » هذا : فهم اولئك الرجال الذين ربوكم من صغركم وظلوا قوامين عليكم منذ حداثتكم واستوثقوا من تضليلكم منذ ذلك العهد قاذفين نحوي من المفتريات ما شاؤوا قائلين لكم : « انهُ يوجد رجل يقال لهُ سقراط : فيلسوف يتأمل خلق السماوات وما احتوت من حكمة ويبحث اسرار الارض وما استكنزت من علم ويقلب الحقائق حتى ليصور لسامعهِ حسناً ما ليس بالحسن» . هؤلاء يا آل اثينا هم الذين اذاعوا عني في عرض البلاد وطولها هذه الترهات وهم الذين احذرهم وامقتهم . ومن يصغي اليهم يخيل اليهِ ان بديهة العقل تسلم بان من

يبحث هذه الامور يسلم بهِ البحث الى الزندقة وانكار وجود الله . ورغم هذا فان متهميَّ كثيرون اخذوا في اتهامي منذ سنين عديدة اذ كنتم في اول سني عمركم معدين لقبول كل ما يأتونكم بهِ عني لقصر عهدكم بهذه الحياة الدنيا . فقد كان العديد الاوفر منكم في دور الشباب والفتوة واجريتم عليَّ احكاماً ظنية ينقصها شرط اساسي من شروط العدل هو بعدي عنكم وغيبة من تسمعون منهُ الدفاع عن مسألتي . ومما يزيد امري منكم ريبة اني لا استطيع ان اعرف اسماء كل متهمي ما لم يكن فيهم رجل معروف يمثل شخصيتهم ويحدد مسؤوليتهم . لانهُ من بين الذين صرفوا كل عنايتهم منذ زمان بعيد في سبيل تضليلكم وغرس النفرة في قلوبكم للاجحاف بحقوقي نفر قد حملوا البعض منكم على الاعتقاد باضاليلهم لانهم انفسهم قد اقنعهم غيرهم ايهاماً وتضليلاً . ومن المستصعب ان نسلك مع هؤلاء سبيل البحث في امري . وليس في مكنتي ان ادعو الى هذا المكان نفراً منهم فاناقشهم الحساب على ما جنوا . فمثلي الآن مثل رجل مضطر بطبيعة مركزه ان يدافع عن نفسهِ ازاء خيالات واشباح صورها لهُ الوهم وان يناقش الفضاء حيث لا مجيب . لذلك يجدر بي ان اعرفكم ان متهمي ينقسمون الى قسمين . فالاولون هم الذين يتهمونني هذه التهمة امامكم . والآخرون ابعد من هؤلاء في نظري خطراً وهم الذين اتكلم فيهم اليوم . ويجب ان تتحققوا انهُ ينبغي على ان ادافع عن نفسي امام هؤلاء قبل غيرهم لما لهم من خطر السبق في اتهامي وهم اول من سمعتم منهم هذه التهم فيَّ فافسحوا لانفسهم فيها مجالاً واسعاً . ولقد يخيل اليَّ الآن يا آل اثينا انهُ يجب عليَّ ان اعمل جهد استطاعتي حتى اخرج من اذهانكم في ساعة ما علق بها من تلك التهم والوشايات منذ سنين ووجدت أرضاً خصبة ظهرت فيها ثمارها . واني لاتمنى من سويداء قلبي ان اصل واياكم الى هذه النتيجة وان انجح في دفاعي عن نفسي اذا كان فيهِ خير لي ولكم . غير اني اظن ان مهمتي صعبة شاقة رغم اني لست محيطاً بها . وعلى كل حال فاننا نترك النتائج لمشيئة الله . انني يجب ان اطيع القانون فابدأ بالدفاع عن مسألتي

(٣) لذلك ينبغي ان ابدأ ببحث تلك التهمة التي بني عليها ما يعزوهُ اليَّ اليوم « ماليتوس » ويتهمني بهِ . وما هذا الثمر الاجاج الآن غلة ذلك الغرس الخبيث ماذا يقولون في دعواهم هذه : أرى من الواجب ان اعتبرهم مدعين قضائيين

فاقرأ لكم قرارهم الذي بنوا عليهِ اساس التهمة . هم يقولون إن سقراط شوكة حادة في قلب الحكومة وجرم لتحديهِ البحث في الكائنات الارضية والسماوية والاجرام العلوية والطبيعة وما بعدها ويضلل الغير باوهامهِ الكاذبة حتى ليقلب لهم الحقائق ويفسدها

هذا ما يقولون وتلك هي المسحة التي اتصفت بها اقاصيصهم . ولقد اتاكم « ارسطفان » من قبل في روايتهِ الهزلية بنتف منها اذ جعل بطلها شخصاً يقال لهُ سقراط يحمل في دن ويدعى انهُ يجتاز اطباق الهواء ماشياً على قدميهِ ويسفسط كثيراً في امور لا اعلم منها يا ذوي رحمي شيئاً قلّ ام كثر . ولست بقائل هذا القول ازدراء مني وتحقيراً لما يمكن ان يعرف من هذه الامور اذا برّز احدكم فيها أفي استطاعة « مليتوس » ان يوجه اليّ مثل هذه التهمة بعد ؟ ان الحقيقة يا آل اثينا انني لا اعلم من هذه الامور شيئاً . واني لأمت اليكم جميعاً أو امت الى السواد الاعظم منكم ان تكونوا في هذا الموقف شهودي العدول : اسألكم ان يكون بعضكم لبعض ظهيراً وأسأل الذين سمعوني اتكلم فيكم من قبل وجلكم قد سمع مني كثيراً أطرق سمع احدكم كلمة واحدة فهت بها لها بمثل ما يختلقونهُ عليّ صلة ما ؟

من هنا تتحققون ان الاقاصيص الاخر التي تتلقفونها من أفواه العامة لا تختلف عن هذه شيئاً

(٤) إن بعد هذه التهمة عند الحقيقة لا يجعل لها وزناً يقام ولا لغيرها مما سمعتم من الكثيرين اني احمل الكسب المادي رائدي في بث تعاليمي . ولا اظن ان هناك فخراً كبيراً في ان اتبع في نشر التعليم وتلقين مبادىء الحكمة تلك الطرق التي يتبعها « جورجياس » الليوتوني « وروديكوس » الايوسي « وهيبياس » الاليسي ان هؤلاء يذهبون الى اية مدينة من المدن التي تعرفونها ويجهدون انفسهم ما استطاعوا في ان يلتف من حولهم بعض من الشبان الذين ينضمون الى غيرهم من بني جلدتهم من غير ان يخصص عليهم استاذهم اجراً ما . وبهذه الطريقة المعيبة يستدرجون الشباب ويغرونهم على نبذ الجماعات الاخر وينضمون الى جماعتهم ومن ثم يرهقونهم بما يأخذونهُ من المال اجراً على تعليمهم. وما ابعد هذا عن سنن الاحتشام والادب المرضي

ولِمَ أذهب بكم بعيداً فلدينا فيلسوف آخر من « بيروس » وهو الآن في بلدة أعرفها . فقد وقع لي يوماً ان اقابل صديقاً انفق من مالهِ على السفسطائيين اكثر مما انفق كل مولع بالحكمة على غيرهم واعني بهِ « كالياس » بن « هيبونيكاس » ولهُ ابنان — فمنّ لي ان اسألهُ سؤالاً فقلت لهُ :

اذا فرضت ان ابنيك لم يكونا انسانين وكانا مهرين كريمين او ثورين ضخمين لاكتريت لهما سائساً يقوم بواجب خدمتهما ونظافتهما وجعلهما زينة وقنية طيبة. ولنفرض ان هذا السائس يكون زارعاً او مربياً للخيول . غير انهما « ياكالياس » من بني الانسان وتربيتهما عليك حق مفروض . فهل فكرت في مربٍّ لهما يقوم بتثقيفهما . وهل يوجد شخص في مستطاعهِ ان يعرف ما ينبغي ان يكون الفرق بين الفرد المطلق وبين الفرد الذي هو تابع لرعوية الحكومة ؟ انني اعتقد انك فكرت في هذا الامر لان لك اولاداً . فهل يوجد هذا الشخص ؟

فاجابني بأن نعم انهُ من المحقق ان شخصاً كهذا لا بد من ان يكون موجوداً

فسألتهُ — أوَ تعرف من هو ومن أين اتى وكم يأخذ من الاجر عن تعليمهِ الاولاد ؟ فقال انهُ إينوس وقد أتى من بلدة بيروس ويأخذ خمسة أمنانٍ على كل طفل

عند ذلك علمت ان « اينوس » هذا اسعد الناس اذا كانت لهُ هذه القدرة العالية ونفسهُ راضية بهذا الاجر الزهيد . فلو كان لي هذه المقدرة لقمت في الناس وتظاهرت بالعظمة ولقذف بي حب الجاه الى التيه عليكم والنيل منكم . ولكن ليس لي هذه القدرة ايها الاثينيون

(٥) يقول البعض منكم — « يا سقراط ما هي تعاليمك ؟ وما الذي اثار من حولك هذه الجلبة واقام ضدك هذه الدعاوي ؟ انك اذا لم تكن قد فعلت الأكما فعل غيرك لما علت الجلبة من حولك ما لم تكن قد اتيت امراً ادّا خالفت فيهِ بقية الناس ؟ اذن يجب ان نعلم ذلك الامر حتى لا نترك وانفسنا يكون لنا النظر منك شيئاً موهوماً »

يظهر يا آل اثينا ان هذا سؤال ذو قيمة. وسأعمل جهد استطاعتي حتى اوضح لكم ماهية الوسائل التي نشرت عني هذه الاقاصيص وروجت هذه الاشاعات الكاذبة — فاصغوا اليّ اذن

سوف يسبق الى حدس البعض اني اسخر منكم. ولكني أؤكد لكم انني لا اقول غير الحق. والحق يا آل اثينا ان الذي نشر اسم سقراط في طول البلاد وعرضها ضرب من الحكمة العقلية عكف على دراسته واكب عليه سني حياته لا اقل من هذا ولا اكثر

وماذا يمكن ان تكون هذه الحكمة العقلية ؟

قد يتفق ان تكون الحكمة اللائق ببني الانسان معرفتها ويحتمل ان اكون جهبذاً كبيراً فيها . على ان من ذكرت لكم الآن اسماءهم قد يكونون جهابذة مبرزين في ضرب من الحكمة ارق مما يتسنى لبني البشر معرفتهُ او غير ذلك من صنوف المعقولات مما يعدو طوق استطاعتي ان احددهُ لكم — اني اتوسل اليكم ايها السادة ان لا تقطعوا عليَّ سياق قولي ولا تهوشوا عليَّ ولو ظننتم اني قلت ما قلت تيهاً بنفسي وعجباً

ان الكلمات التي اردداها على مسمعكم الآن ليست لي بل اسندها الى خطيب طالما حييتم لهُ الرؤوس اجلالاً . اما الشاهد الوحيد الذي ساشهدهُ على ما اشتغلت بهِ من الحكمة — اذا سمحتم لي ان ادعوها حكمة او شيئاً من طبيعتها — فهو ذلك الاله الذي يقطن « دلفي » واظن انكم تعرفون « شيريفون » : انهُ كان صديقي منذ نعومة اظفاري وطفولتي وهو صديق نظامكم الديمقراطي ايضاً : انهُ رافقكم الى المنفى وعاد معكم [1] واني لاعرف حق المعرفة طباع شيريفون واخلاقهُ وغيرتهُ في كل عمل القيت اليهِ مقاليده : هاجر الى « دلفي » وحملتهُ شجاعتهُ على ان يسأل الصوت الالهي سؤالاً : — اني لاتوسل اليكم ايها السادة ان لا تهوشوا عليَّ او تقطعوا سياق قولي فيما اقول : سأل الهاتف هل يوجد رجل اعقل مني . فاجابتهُ راهبة المعبد بان الصوت اجاب سلباً . وعندي على صدق روايتي شاهد عدل هو اخو « شيريفون » — لان « شيريفون » قد ارتحل من هذه الدار الفانية

اسماعيل مظهر

(١) بعد ان خضعت اثينا لاسبارطة عام ٤٠٤ ق . م تقوض في اثينا بناء الحكومة الديمقراطية فعين بعد ذلك مجلس من ثلاثين عيناً من اعيان الارستقراطيين بصفة مؤقتة في بادىء الامر فانحصرت السلطة كلها فيهم فظلموا وتعسفوا ففر زعماء الحكومة الديمقراطية خوفاً من الموت وذهبوا الى منفاهم وبعد سنة واحدة انقلبت الاحوال ورجع الديمقراطيون ووطدوا اركان الحكومة الحرة وقد عمدوا في بعض الاحيان الى قوة السلاح حتى استتب لهم الامر